الباب الرابع

ثقافة السلام

obeikandl.com

الفصل الأول:

أسس ثقافة السلام

أول أسس ثقافة السلام أنها ثقافة "**حق**" لا ثقافة "**واقعية**" تتخذ الشعار طريقاً لتبرير الظلم، لكنها في الوقت نفسه ثقافة إصلاح تحاول أن تمنع بعض "**المغرضين**" والكثيرين من أصحاب النوايا الحسنة من معالجة "**خطأ**" بارتكاب خطيئة. لقد تم وضع السلام في القائمة السوداء بسبب ظرف طارئ عمره لا يتجاوز عدة عقود بينما ثقافتنا العربية الإسلامية على امتداد قرون كانت ثقافة سلام مع النفس ومع البيئة المحيطة ومع العالم، فجأة أصبحت "**ثقافة السلام**" تعبيراً مثيراً للريبة، وهي في الحقيقة ريبة في غير محلها، ليس فقط لأن السلام حالة

نبيلة تتفق مع الفطرة والسواء الإنساني والبنية التشريعية التي أرساها الإسلام، بل لأن السلام حق وواجب إنساني في آن وحد.

إن "**السلام**" موقف وليس مبدأً وكذلك "**الحرب**" وكلاهما وسيلة لإحقاق الحق، فإذا أصبح السلام مبدأ فقط تحول إلى استسلام، لكن الحرب أيضاً إذا تحولت من وسيلة إلى غاية فهي انحطاط بالإنسانية من أفق التكريم السامي الذي ارتقت إليه بمنة إلهية لتسقط في درك الحيوانية الذي تتحكم فيه الغرائز.

فالحيوان لا يعرف المسافة التي تفصل بين الفعل ورد الفعل، وهذه المسافة بين الفعل ورد الفعل هي مناط التكريم وفضاء تحقق إنسانية الإنسان، والفاصل الذي يقف فيه الإنسان – الفرد أوالجماعة – ليسأل نفسه عن المشروعية القيمية والإجرائية لرد فعله، وكذلك البدائل المتاحة والأولويات وتراتبها.

وثقافة السلام من القضايا التي "**تَقرَّر**" بشكل غامض تصنيفها بوصفها "**شجرة محرمة**" في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، وهو اختيار لم يكن ليعيننا على استراد حق مسلوب، لأن استرداد هذا الحق

مرهون فعلياً بكفاءة "**الدولة العربية**"، وليس مرهوناً بدرجة تشبع المجتمعات العربية بثقافة رفض السلام. وفي حقيقة الأمر فإن ثقافة السلام ليست مرادف "ثقافة الاستسلام" ولا نقيض "ثقافة المقاومة"، هي بل نقيض:

"ثقافة العنف"

و"ثقافة العدوان"

و"ثقافة الكراهية"

و"ثقافة العسكرة"

و"ثقافة الصراع"

وجميعها مفردات تخرج الإنسان حالته الفطرية، وفي إطار هذه الحالة فإن العدوان يستثير الغضب أما ثقافة الغضب التي تجعل هذه الحالة سمة دائمة وتمتدح ذلك وتسوغه فهي ثقافة معادية لإنسانية الإنسان وخلفها تأتي متلازمة من الأعراض تأتي على الأخضر واليابس ولا تتوقف عند ميدان العلاقة مع الآخر لتصبح ثقافة عنف شاملة: اجتماعية سياسية لا تستثني الكيانات الأصغر وصولاً إلى الأسرة الواحدة.

obeikandl.com

وعليه، فإن إدارة عملية تغيير مخطط واع محسوب لنشر ثقافة السلام مطلب إنساني لأجل مستقبل الإنسان ولا يجوز حشرها حشراً في سياق سياسي ضيق، وإذا لم يكن السلام مطلبا لنا كأفراد وكأمة فإن النتائج الكارثية للتصالح مع العنف وتطبيعه ستتجاوز آثارها بكثير العلاقة مع الآخر لتأكل المجتمعات العربية، فالعنف الاجتماعي المتصاعد ليس حصاد عوامل اجتماعية وحسب، والعنف السياسي الذي شهدته عدة أقطار عربية خلال العقود القليلة الماضية هو نتاج عوامل عديدة، في مقدمتها التغييب المتعمد المقصود المخطط الواعي لثقافة السلام.

من ثم فإن هذه الدراسة هي في مساحة ما هو اختياري في علاقة الإنسان بقافته ولا تسعى لأن ترد على المنطق الإقصائي بمنطق إقصائي مقابل، فالعنف بمعناه الواسع والحرب بصفة خاصة كانا على امتداد التاريخ الإنساني جزءا من حياة المجتمعات لكن ما تريد أن تقوله أن تحويل "**الجزء**" إلى "**الكل**" هو تلاعب بالمعايير تترتب عليه نتائج خطيرة، وتحويل الأصل إل فرع والفرع إلى أصل لا يثمر إلا ثقافة مختلة، وعندما تصاب الأمم بالدوار الثقافي نتيجة اختلال معايير التقييم فإن النتائج تكون مما لا يعلم إلا الله مداه.

وحصاد الجولة السريعة التي قمنا بها في التاريخ القديم وبخاصة التاريخ اليوناني القديم حافلة بالدروس والعبرة ومنها نستطيع أن نرسم صورة لرؤية البشر قديما لعلاقاتهم سلماً وحرباً، فالمتشائمون رأوا الحرب "**حتمية**" تفرضها عليهم قوى خفية أشبه بقوى القدر، وأن حماية الله هي وحدها القادرة على وقفها، والتبريريون رأوها أنها ظاهرة طبيعية للحفاظ على العدد المعقول من سكان الأرض!

لكن دور الفكرة في نشوب الحروب كان الدرس الأهم في هذه الرحلة في التاريخ القديم، فبعض المفكرين اعتبر أن تعاقب الحرب والسلام ظاهرة لا يمكن إنكارها بل يذهب بعضهم إلى أن تعاقب الحرب والسلام أمر محتم كتعاقب الليل والنهار. أما التعصب القومي والوطني فكانا وقود الصراع في أغلب الحالات.

وقد عانت الإنسانية – ولا تزال تعاني – من نتائج ممارسات العنف وما خلفته الحروب من تدمير وضحايا لم يكد ينجو منها شعب. وعلى امتداد التاريخ تفشت النزاعات والحروب وأخذت الآثار والنتائج التدميرية الناتجة عنها تتضاعف مع تزايد التقدم التقني والعلمي الأمر الذي يثير الرعب من حدوث انفجار أو نزاع مسلح قد يؤدي إلى تدمير

واسع وهو نفسه الرعب الذي عاشه العالم خلال سنوات "**الحرب الباردة**".

ويتطلب تجنب الحروب والنزاعات وجميع ممارسات العنف إلى جانب الدعوات الأخلاقية، ضرورة التوقف عند جوهر وأسباب نشأة ممارسات العنف والعدوان وإدراك وفهم أن النزاعات يمكن أن يكون سببها في الأساس تعارض المصالح، إلا أن تعارض المصالح أو اختلافها يعتبر شيئا طبيعيا وإنسانيا والسلوك الذي يتم لحل النزاعات الناشئة عن هذا التعارض عندما يستخدم فيه العنف أو الحرب تكون نتيجته مدمرة على جميع الأطراف. وومن ثم يكون مهما إدراك أن السبب وراء ذلك هو وجود ثقافة تدعم قيم وممارسات الاستبداد والتمييز والهيمنة وعدم قبول الاختلاف وما يجعل العنف والعدوان منهجا وفلسفة معتمدة تطبق على أي خلاف أو نزاع بداية من الاختلاف في الافكار أو العقائد حتى النزاع على النفوذ أو الموارد أو الحدود. وهو ما يصبغ المجتمع الذي تسود فيه مثل هذه الثقافة بطابع العنف واللا تفاهم.

وإحلال السلام ونبذ أساليب العنف لا يتوقف أو يرتبط فقط بعقد الاتفاقيات أو المعاهدات أو حتى باستصدار التشريعات والقوانين

ولكنه يرتبط في الأساس بنشر واعتناق ثقافة جديدة هي "**ثقافة السلام**" التي تنبني على قيم التفاهم وقبول الاختلاف واحترام كرامة الإنسانية وعدم الاعتماد على العنف كمخرج لحل أية مشكلة مهما يكن نوعها. ويرتبط نشر ثقافة السلام بالتنشئة على قيمها ومفاهيمها وهي عملية يجب أن تبدأ منذ الطفولة ويتضمنها نظام القيم التي تحتويها برامج التنشئة الاجتماعية والتربوية، وضمن ذلك المعلومات والقيم والمهارات الحياتية وأساليب التفكير وبناء العقل.

ولقد كانت هذه القضية في مقدمة اهتمامات العديد من المؤسسات الدولية والإقليمية والمحلية منذ فترة حيث بدأت بالجهود والدعوة إليها عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وما خلفته من دمار بصيحة للسلام دعا إليها **اتحاد النساء الديمقراطي العالمي** في مدينة فراكلو في بولندا عام 1949 وهو الاهتمام الذي عكسه فيما بعد **إعلان إشبيليا** الصادر عن **منظمة اليونسكو** عام 1989 والذي وضعه علماء ينتسبون إلى بلدان الشمال والجنوب وحضارات الشرق والغرب.

ويؤكد هذا الإعلان أن الحرب اختراع وليست ضرورة بشرية أو حتمية بيولوجية وبالتالي يمكن استبدالها ومواجهتها بثقافة السلام التي

يمكن أن تضع حداً للحروب والآلام التي تخلفها وذلك من خلال محاربة أنماط السلوك المرتبطة بالعنف وهي الأنماط التي تعيق بناء السلام على جميع الأصعدة سواء على مستوى العائلة أو على المستوى العالمي.

وينقل المفكر الإسلامي خالص جلبي عن الفليسوف اليوناني هيراقليطس قوله عن فلسفة الحرب بوصفها نقيضا لثقافة السلام إنها التي تفرق البشر وهي الفيصل بين الحرية والعبودية، ويضيف أن الأوربيون كانوا في الحرب العالمية الثانية يفرحون حينما يوقعون أكبر قدر من الخسائر في صفوف العدو.

ولعنة ثقافة الحرب حسب الكاتب معجب الزهراني أنها يمكن أن تحول ضحاياها إلى أبطال وشهداء أما ثقافة العمل فهي "**مهنة**" كأن من يحسنها يخضع لقيم جديدة غير مرغوب فيها المهنة للرجل تمتهنه وتهينه لأنها تمنعه من أن يصبح بطلاً معتبراً. والقضية هنا ليست عدالة القضايا التي يحمل المقاتل سلاحه دفاعاً عنها، فهذا شأن آخر. لكن الخطر هو هذه الثقافة التي تعلم البشر حمل السلاح واستعماله قبل أن تعلمهم مهنة أخرى، فثقافة الحرب تحقر ثقافة العمل.

الفصل الثاني:

ثقافة السلام في الإسلام

إذا كانت هذه خلاصة الاجتهادات والأفكار التي تمخض عنها الفكر البشري في العصر القديم، فإن الإسلام يمثل مدرسة شديدة الأهمية والتفرد في إرساء أسس "**ثقافة السلام**" وأهمها:

أولاً:

أن القتال ليس حالة فطرية ولا طبيعية للإنسان كما ادعت مذاهب فلسفية قديمة ومعاصرة بل يتعارض مع الفطرة، والقرآن الكريم يتوجه للمؤمنين بالخطاب مقرراً حقيقة شديدة الأهمية هي أن القتال "**مكروه**": "**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ**

لا تَعْلَمُونَ" (**البقرة – 216**)، فما هو مكروه من النبي وصحابته الطاهرين، فهو دون شك مكروه بمعايير الإنسانية السوية.

ثانياً:

أن قتال المعتدين واجب تفرضه الفطرة، وهو في الإسلام "**في سبيل الله**"، والأصل في القتال ألا يكون اعتداء لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، قال تعالى: "**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**" (**البقرة – 190**)

ثالثاً:

أن القتال وسيلة وليس غاية في ذاته، بل إن الله يمن على المؤمنين أن كفاهم مؤنة القتال، قال تعالى عن غزوة الأحزاب: "**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً**"(**سورة الأحزاب – 25**)

رابعاً:

أن القتل الذي هو الفعل الرئيس في الحرب يمكن أن يصبح عدواناً على الإنسانية كلها إذا كان ظلماً، قال تعالى: "**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ**

obeikandl.com

كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ"(سورة المائدة – 32)

وفي السنة النبوية أصل عظيم الأهمية فعن **سَعِيدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رضى الله عنهما – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِى فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا". (صحيح البخاري حديث رقم 6862)**، وفي مسند أحمد: **"حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِى أَبِى حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم– أَنَّهُ قَالَ: "لَنْ يَزَالَ الْمَرْءُ فِى فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً". (مسند أحمد حديث رقم 5814).**

وفي سنن أبي داوود: **"عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « لاَ يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا**

صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ". (سنن أبي داود حديث رقم 4272).

وهذا الأصل لا يتقصر على دم المؤمن بل يتعداه إلى كل دم حرام، وفي **السلسلة الصحيحة للألباني**، أنه صلى الله عليه وسلم قال: **"من قتل نفساً معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة وإن ريح الجنة توجد من مسيرة مائة عام" (السلسة الصحيحة – حديث رقم حديث 2356– وورد بلفظ سبعين عاماً. وإسناده صحيح)**

وهذا التغليظ في التحذير من سفك الدماء لا يعني أن الحرب كلمة ممنوعة في القاموس الإسلامي، بل يجب القتال أحياناً، فإذا وجب كانت حدوده وممكناته ومحرماته تحت سقف الشرع، فليس عنفا منفلتاً.

ولأنه محكوم بالشرع فإن هداية "**العدو**" فيه أهم من قتله أو هزيمته، ويعد درس غزوة خيبر من أهم الدروس في هذا السياق ففي صحيح البخاري: **"حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ الْقَعْنَبِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ – رضى الله عنه – سَمِعَ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ "لأُعْطِيَنَّ**

الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ". فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى فَقَالَ "أَيْنَ عَلِيٌّ". فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ فَقَالَ نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ "عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ" ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ" وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ" فَوَاللَّهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ". (البخاري حديث رقم 2942).

فهذا حد من أهم حدود ثقافة السلام أن "**تهدي**" خير من أن تنتصر على عدوك أو تقتله.

ومن معالم ثقافة السلام في تشريعات القتال في الإسلام أن يكون القتل "**حسناً**" وهو أمر لم تعرفه البشرية قبل الإسلام حيث أصبح هناك ما يعرف بـ "**أخلاقيات القتال**"، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إذا حكمتم فا عدلوا وإذا قتلتم فأحسنوا فإن الله محسن يحب المحسنين" (السلسة الصحيحة للألباني – حديث رقم 469)**. وأخلاقيات القتال تعني إخراجه من دائرة الصراع إلى دائرة

التدافع، وهو ما ستشهد البشرة بسبب غيابه انتكاسة رهيبة في العلاقات الدولية، سببها تحويل الحروب مرة أخرى إلى صراع مفتوح لا قمة له ولا قاع ولا محرمات فيه.

والمؤسسة العسكرية في الإسلام ليست سوى أداة لتحقيق أهداف الحرب، وهي بالتالي ليست مطلقة اليد في القرار العسكري، وهي كذلك محكومة بضوابط للعمل في الميدان تمليها الشريعة وفي صحيح مسلم: "**عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِى خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ "اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَ لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلاَلٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ**

حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِى الْغَنِيمَةِ وَالْفَىْءِ شَىْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ". (**صحيح مسلم حديث رقم 4619 – وراجع أيضا سنن الترمذي حديث رقم 1715 – وسنن ابن ماجة حديث رقم 2967**). وفي السلسلة الصحيحة للألباني: قال رسول الله صلة الله عليه وسلم: "**قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفا**". (**السلسلة الصحيحة للألباني حديث رقم 701**).

وحتى تستقيم العلاقة بين المؤسسة السياسية والعسكرية وتتغول الأخيرة فتفرض "**ثقافة العسكرة**"، فلابد منن إبقائها "**وسيلة**" ومحاسبتها

على أدائها وقد الرسول صلى الله عليه وسلم يحاسب القادة والجند بصرامة على كل ما يشكل خروجا عن آداب الحرب وقواعد الشرع المنظمة لها، وفي السلسلة الصحيحة للألباني، قال صلى الله عليه وسلم: "**ما بال قوم جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية فقال رجل يا رسول الله إنما هم أولاد المشركين، فقال: ألا إن خياركم أبناء المشركين. ثم قال: ألا لا تقتلوا ذرية. قال: كل نسمة تولد على الفطرة حتى يهب عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها**". (**السلسلة الصحيحة للألباني حديث رقم 402**).

والخير في ثقافة السلام يتجاوز المؤمن والمعاهد والذمي إلى العدو، فالأسير مقاتل وقع في أسر عدوه، لكنه في الإسلام موضع رحمة، وفي صحيح البخاري: "**عَنْ أَبِى مُوسَى – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – "فُكُّوا الْعَانِىَ – يَعْنِى الأَسِيرَ – وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ وَعُودُوا الْمَرِيضَ**". (**صحيح البخاري حديث رقم 3046**).

ومن الدروس البليغة في سيرة الصحابة التي تشكل معلما من معالم ثقافة السلام قصى الصحابي الجليل خبيب بن عدي الأنصاري

وهو "**بدري**" أي أنه شهد بدراً. وكان خبيب بن عدي قد أسر يوم الرجيع في سرية، **فعن أبي هريرة أنه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، عرف بأمرهم حي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا إليهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم فأحاط بهم القوم فقالوا: انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت أمير القوم: أما أن فوالله لا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصماً في سبعة، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، فيهم: خبيب الأنصاري، وزيد بن الدثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قيسهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصبحكم، إن لي بهؤلاء لأسوة، يريد القتلى، فجروه وعالجوه، فأبى أن يصبحهم فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر.**

فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف: خبيباً، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر بن نوفل يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله. ودفعوه إلى عقبة بن الحارث فسجنه في داره وكانت امرأة عقبة تقوته وتفتح عنه وتطعمه وقال لها: إذا أرادوا قتلي فآذنيني. ومكث خبيب عندهم أسيراً حتى إذا اجتمعوا على قتله استعار موسى من إحدى بنات الحارث ليستحد بها فأعارته. فدرج بني لها، قالت: وأنا غافلة، حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، قالت: ففزعت فزعة خبيب، فقال: أتحسبين أني أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، فكانت تقول ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب".

وفي رسالة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبي وقاص وكان قائد جيش يوصيه بأهل الذمة قائلاً: "**نح منازلهم عن قرى أهل الصلح الذمة فلا يدخلها من أصابك المن تثق بدنية ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلو بالصبر عليها فإن صبروا لكم فتولهم خيراً ولا تتنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح**".

ويرى الأستاذ حسن البنا كما ورد في كتابه "**السلام في الإسلام**" أن من ملامح ثقافة السلام في الإسلام المساواة التامة، فالجنس الإنساني مكرم كله مفضل على كثير من المخلوقات: "**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**" (الاسراء:70)، والناس جميعًا مخاطبون بهذه الدعوة الإسلامية، وكثيرًا ما يستفتح الخطاب في القرآن الكريم بيا أيها الناس إشارة إلى عموم هذه الرسالة، وتسويتها بين الناس في الحقوق والواجبات. وإلى جانب المساواة يقرر الإسلا معاني معاني الرحمة والحب والإيثار والإحسان ولقد دعم الإسلام هذه المعاني النظرية والمراسيم العملية ببث أفضل المشاعر الإنسانية في النفوس من حب الخير للناس جميعًا، والترغيب في الإيثار، ولو مع الحاجة: "**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**" (الحشر: من الآية9)، والإحسان في كل شيء حتى في القتل "**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**" (البقرة: من الآية195)، "**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**" (الكهف: من الآية30)، "**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**" (النحل: من الآية90).

وتقرير عواطف الرحمة حتى مع الحيوان، فأبواب الجنة تفتح لرجل سقى كلبًا، وتبتلع الجحيم امرأة؛ لأنها حبست هِرَّةً بغير طعام، كما جاء ذلك وغيره من كثير من مثله في أحاديث النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- حتى استغرب أصحابه، وقالوا: "**وإنَّ لَنَا في البَهَائِمِ لأجرًا يَا رَسُول الله؟ قال:"نَعَم، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطبَةٍ أجرٌ**" (رواه البخاري)، ويعلق البنا قائلاً: "**ولا شك أن هذه المشاعر هي التي تفيض على صاحبها أفضل معاني الإنسانية وتوجهه إلى تقدير قيمة الأخوة العالمية**".

وإن التاريخ ليحدثنا أن المجتمع الإسلامي سعد بتحقيق هذه المعاني في كل عصر من العصور التي ازدهرت فيها دعوة الإسلام، وطبقها المؤمنون فيها تطبيقًا صحيحًا، ففي عهد النبوة كان "**سلمان**" الفارسي إلى جانب "**صهيب**" الرومي إلى جوار "**بلال**" الحبشي، ومعهم في نسق واحد "**أبو بكر**" القرشي تضمهم جيمعًا أخوة الإسلام: "**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**" (آل عمران :من الآية103)، ولم تعرف التعصبات

الجنسية إلاً يوم ضعف شعور المسلمين بسلطان التوجيه الإسلامي الصحيح واجتاحتهم شياطين التقليد فانحرفوا عن هذا الصراط المستقيم.

وبالنسبة للشريعة فإن البنا يقرر أنها شريعة السلام ودين المرحمة ما في ذلك شك لا يخالف في هذا إلا جاهل بأحكامه أو حاقد على نظامه أم مكابر لا يقتنع بدليل ولا يسلم ببرهان، واسم الإسلام نفسه مشتق من صميم هذه المادة مادة السلام، والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسمًا أفضل من أن يكونوا المسلمين: "**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس**" (الحج: من الآية78)، وحقيقة هذا الدين ولبه الإسلام لرب العالمين: "**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**" (البقرة:112)، ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (البقرة:131)، "**وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**" (الأنعام: من الآية71).

ويرسم البنا صورة مليئة بالتفاصيل عن الوجود الظاهر للسلام، لفظاً ومعنى، في الإسلام فيقول: "**تحية أهل الإسلام فيما بينهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته – وختام الصلاة عندهم سلام على**

اليمين وسلام على اليسار وسلام في الأمام، إن كانوا يصلون خلف إمام كأنهم يبدأون أهل الدنيا من كل نواحيها بالسلام بعد أن فارقوها بخواطرهم لحظات انصرفوا فيها لمناجاة الله الملك العلام. وقد نزل القرآن الكريم في ليلة كله سلام تحف به ملائكة السلام: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ" (سورة القدر 1 – 5).

وأفضل ما يلقى الله به عباده تحية السلام: "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا" (سورة الأحزاب 44)، وخير ما يستقبل الملائكة به الصالحين من عباد الله في جنة السلام: "وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" (سورة الرعد 23 – 24)، والجنة نفسها اسمها دار السلام "لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة الأنعام 127)، "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (سورة يونس 25)، والله – تبارك وتعالى – اسمه السلام: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ"

(سورة الحشر 23)، ولن يتأخر المسلم عن الاستجابة لدعوة السلام ولن يردها أبدًا: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (سورة الأنفال 61)، "

بل يذهب البنا إلى حد القول بأنه "ليست في الدنيا شريعة دينية ولا نظام اجتماعي فرض السلام تدريبًا عمليًّا، واعتبره شعيرة من شعائره وركنًا من أركانه كما فرض الإسلام رياضة النفس على السلام بالإحرام في الحج، فمتى أهلّ المسلم به فقد حرم عليه منذ تلك اللحظة أن يقص ظفرًا أو يحلق شعرًا أو يقطع نباتًا أو يعضد شجرًا أو يقتل حيوانًا أو يرمي صيدًا أو يؤذي أحدًا بيد أو لسان حتى ولو وجد قاتل أبيه وجهًا لوجه لما استطاع أن يمسه بشيء": "فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجّ" (البقرة 197)، فهو بهذا الإحرام قد أصبح سلمًا لنفسه سلمًا لغيره من إنسان أو حيوان أو نبات.

والإسلام دين الرحمة، فهي قرين السلام في تحية المسلمين، ونبي الإسلام إنما أرسله الله رحمة للعالمين، وشعار

المسلم الذي يردده قبل كل قول أو عمل "بسم الله الرحمن الرحيم"، والوصية بين المؤمنين الصبر والمرحمة: "ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" (سورة البلد17).

لقد فتحت أبواب الجنة، وشملت مغفرة الله تعالى ومنته رجلاً سقى كلبًا يلهث يأكل الثرى من العطش، روى "البخاري" و"مسلم" وغيرهما عن "أبي هريرة" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينَمَا رَجُلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطشُ فوَجَدَ بئرًا، فَنَزَلَ فيها فَشَرِبَ ثمَّ خَرَجَ، وإذا كلبٌ يَلهثُ يأكلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فقال الرَّجل: لَقَد بَلَغَ هَذَا الكلبُ مِنَ العَطَشِ مِثل الذي كانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئرَ فملأَ خُفَّهُ مَاءً، ثمَّ أمسَكَهُ بفِيهِ حتَّى رَقَى فَسَقَى الكلبَ فشَكَرَ اللهُ- تعالى- لهُ فَغفرَ لهُ. قالوا يا رسول الله : وإنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أجرًا؟ قال: فِي كُلِّ كَبِدٍ رِطْبَةٍ أجرٌ". وفتحت أبواب النار لامرأة حبست هرة وقست عليها، روى "البخاري " و"مسلم" أن "ابن عمر" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دخلت امرأةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ ربطَتهَا فَلا هِيَ أطعمَتهَا ولاَ هِيَ تَركَتهَا تَأكُلُ مِن خَشَاشِ الأرضِ".

وقد تميز الإسلام في هذا الميدان برفضه فلسفة "**الصراع**"، لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف فيزيله وينهي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله في سائر عوالم المخلوقات. رفض الإسلام فلسفة "**الصراع**"، وأحل محلها فلسفة "**التدافع**" الذي هو حراك يعدّل المواقف، ويعيد التوازن، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء. إن الإسلام لا يريد "**الصراع**" الذي ينهي "**الآخر**"، وإنما "**التدافع**" الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين.

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلّة جُبل عليها الإنسان وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه. وفي مواجهة هذه الفلسفات التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقاً من طرق التقدم والتطور(!) يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه وليس القاعدة. إنه ضرورة تُقدر بقدرها: "**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**" (البقرة: 216)، وليس هناك "**مكتوب**" و"**مفروض**" وصف في القرآن الكريم بأنه "**كُرْهٌ**" سوى القتال.

ولقد بينت السنة النبوية وأكدت هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله**" (رواه الدارمي). وحتى هذا القتال الذي كتب على المسلمين وهو كُره لهم والذي وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة – التي هي أكبر من القتل المادي – ولحماية حرية الوطن الذي بدونه لا يُقام الإسلام... حتى هذا القتال – الاستثناء والضرورة – قد وضع الإسلام ودولته له "**دستوراً أخلاقياً**" تجاوز في سموه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي نظرياً (!) بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال.

ولقد صاغ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو رأس الدولة قواعد هذا الدستور الأخلاقي للقتال والحرب في وثيقة إسلامية عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال في وثيقة الوصايا العشر: "**إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبَّسوا أنفسهم لله (الرهبان) فدعهم**

وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له (...) **وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأةً ولا صبيّاً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخرّبن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغْلُل، ولا تجْبُن**"(رواه مالك في الموطأ).

فمعيار الإسلام ودولته في السلم والسلام أو الحرب والقتال ليس "**الإيمان**" و"**الكفر**" ولا "**الاتفاق**" و"**الاختلاف**"، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار. وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: "**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**" (سورة الممتحنة: 7 – 9).

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين، فكان اليهود – بدولة المدينة المنورة – جزءً من الرعية والأمة. ونص دستور هذه الدولة الإسلامية الأولى على أن "**لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتنَاصر عليهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، فيهود أمة مع المؤمنين**". وبالنسبة لعموم النصارى قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: "**أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم**". تلك حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال. إنه الاستثناء لا القاعدة، وهو الاستثناء المكروه ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعاً عن حرية الاعتقاد والضمير وحرية الوطن الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله في شريعة الإسلام. تلك هي حقيقة

القتال في الإسلام وتلك مقاصده. إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد، وهو الاستثناء لا القاعدة، والضرورة التي تُقَدَّر بقدرها، وهو الفريضة المكروهة وليس الجِبِلة التي تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام.

obeikandl.com